المحاضرة الثانية: نشأة الدين وبواعثه بين الفلسفة والعلم:

يختلف الفلاسفة والعلماء حول نشأة الاعتقاد الديني وضرورته لدى الإنسان. وإن كان أغلبهم يميل إلى أنّ الدينَ فطرةٌ في النفس البشريّة. والفطرة هي الطبيعة التي خلقها الله في جميع البشر، ومن هنا فإنّ الحقيقة التي أجمع عليها مؤرّخو الأديان «هي أنه ليست هناك جماعةٌ إنسانيّة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكّر في مبدأ الإنسان ومصيره وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن تتخذ لها من هذه المسائل رأياً معيناً حقّاً أو باطلاً، يقيناً أو ظنّاً، تُصوّر به القوّة التي تخضع لها هذه الظواهر في شأنها والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها.»
وربما يكون ذلك هو ما حدا ببعض العلماء إلى القول بأن الدين أو الاعتقاد هو عملٌ لا شعوريّ سواءً أكان ذلك العمل اللاشعوري طريقه العقل الباطن أم الإلهام فهو في نظرهم عمل اختياريٌّ لا دخل للمرء في تكوينه ولا قدرة له على ردّه عنه. ومن هنا فإنّ الدين في نظرهم يخالف العلم لأنه قائمٌ على الشعور والإرادة.«
بينما الرأي الأرجح عند جانبٍ آخرٍ من الفلاسفة مثل ديكارت وهيجل ووليم جيميس أن الإيمان أو العقيدة من عمل العقل والإرادة معاً وأنّه لا يمكن تجريد الاعتقاد أو الدين عن عمل الاختيار والإرادة.

والخلاصة أننا نرى أنّ الدين فطرةٌ فطر اللهُ الناسَ عليها، فهم منذ فجر التاريخ بإرادتهم وعقولهم يعتقدون في دين ما. اختلفت مظاهر العبادة وأسماء المعبودات لكنهم في النهاية يؤمنون بعقيدةٍ ما حول أصل الخلق ونشأة الوجود وما وراء هذه الظواهر الطبيعية. وهذه الفطرة ليست لا شعورية بقدر ما هي فطرة عاقلة حيث إن الإنسان هو الكائن الوحيد المتديّن في هذا الوجود ولم يكن ممكناً له أن يكون كذلك إلا عبر عقله الواعي وإرادته الحرّة. وهذه الحقيقة هي ما عبّر عنها القرآن الكريم بوضوحٍ في قوله تعالى: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» (الأعراف- آية 172.(

إن هذه الآية إذن تتضمن النظريّة الإسلاميّة لنشأة الدين، إذ يعرّف فيها القرآن حقيقةَ الباعث على التدين، فقد استخرج الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم التي سوف توجد جيلاً بعد جيل في قرن بعد قرن، وسألهم ألست بربكم؟ فأجابوا: بلى.. فكانت الفطرة التي خلق الله عليها الإنسان فطرةً سيمةً من حيث استطاعتها التعرّف على الله دون حاجةٍ إلى وسيط، فإذا انحرفت عن ذلك بعد ذلك فلا علّة لها ولا عذر.

ولذلك فقد أبرز الله الحكمة من هذا السؤال والناس لا يزالون في عالم الذر يوم أن أخذ الله عليهم هذا الميثاق فقال تعالى: «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»، «أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون».

وقد فسّر ابن عباس آية الأعراف التي سبق الإشارة إليها بقوله: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطاه الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفّى به نفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول أي على الفطرة، ومن هنا ندرك حقيقة أن التدين مرتبطٌ بالفطرة وهي الميثاق الأول وهو قوله تعالى «فطرةُ الله التي فطر الناس عليها.«

إن الدين في المفهوم الإسلامي هو قانون الله إلى الإنسان عامة، حيث انقاد الكون كلّه إلى الناموس الإلهي حسب قوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» (فصلت: آية 11)، ولم يبق في الكون إلا الإنسان فأنزل الله له الدين وحياً سماويًّا من عنده جلّ شأنه حسب قوله تعالى: «أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون» (آل عمران- آية 83). وهذا الدين الذي أنزله الله على البشر جميعاً مصدره الوحي الإلهي إلى الأنبياء جميعاً على امتداد التاريخ البشرى. وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» (النساء: آية 163.(

وعلى كلِّ حالٍ فإن تعدّد الديانات وتعدّد صور الألوهيّة لا يند عن هذه الرؤية إلا بما يميّز الدين الإسلامي عن الديانات والعقائد السابقة منذ آدم حتى الآن. والخلاصة أن الدين فطرةٌ من الله فطر الناس عليها ومن يشذ عن ذلك فإنما خالف الفطرة وخرج عليها. وهو من ثم دائم الإحساس أن ثمة ما ينقصه حتى ولو ادّعى غير ذلك عبر أسانيدٍ وحججٍ واهيةٍ يمكن ببساطة أن يختبرها جميعاً بالنظر في ذاته متسائلاً كيف خلق وكيف خُلقت كلّ هذه الخلائق وأين مصدرها وأين منتهاها..؟؟ إلى آخر هذه التساؤلات التي إن أمعن النظر فيها أدرك أن الفطرة الصحيحة هي الإيمان بالله الخالق ومن ثم اكتشف ضرورة الدين وعبادة الخالق الواحد الأحد.

إن ثمة بواعث عديدة للإيمان بالله والتديّن بعقيدةٍ ما لخّصها ول ديورانت في خمسة نقاط وهي: الخوف والدهشة والأحلام والنفس والروحانية، واتفق معه كثيرون من العلماء بشكلٍ أو بآخر، فلقد قالوا أن بواعث الاعتقاد خمسة هي:

-الحاجة الفردية -الخوف من الطبيعة والإحساس بروعة المجهول.

-الاعتقاد بأن لكلِّ مادّةٍ روحاً تحمل فيها وأنّ الاستحواذ على هذه الروح يمكّن الإنسان من استخدامها والانتفاع بها -السحر الذي اعتبره البعض المصدر الذي دفع الإنسان إلى التدين.

-العادات والتقاليد حيث إن الأجيال تحرص دائماً على تقليد بعضها البعض في التديّن وهذا يلخص قوله تعالى: «وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .«

تصنيف الأديان من منظورٍ موضوعيٍّ شامل:

إنّ المعتقدات الدينيّة لدى شعوبٍ وحضاراتِ العالم تتعدّد وتتنوّع أصولها وتفريعاتها لدرجةٍ يصعب بالفعل حصرها وتصنيفها، وقد اجتهد كثيرٌ من علماء تاريخ الأديان وعلماء مقارنة الأديان في تصنيفها. وبالطبع فقد اختلفت هذه التصنيفات تبعاً لميول هؤلاء العلماء وتبعاً للمناهج المتعدّدة التي اتبعوها. وإن كنت أميل إلى الأخذ بتصنيف العالِم المصري د. محمد خليفة، حيث يميّز بين نوعين كبيرين من التصنيفات؛ تصنيفاتٌ غير علميّةٍ وغير موضوعيةٍ، وتصنيفاتٌ علميّةٌ موضوعيةٌ. وبالطبع فإن التصنيفات التي يرى ونحن معه أنّها علميّةٌ يشوبها الكثير من أوجه النقص التي تمنع من اعتمادها وإقرارها، بينما التصنيفات العلميّة فهي لها أساسٌ علميٌّ موضوعيّ يمكن أن نختلف حوله لكنّه مقبولٌ نظراً للأساس العلمي الذي يستند عليه .

)أ) **التصنيفات غير العلمية:** تصنيف الأديان إلى حيّة وميتة، وهذا التصنيف يستند على وجود هذا الدين أو عدم وجوده على مسرح الحياة الحديثة والمعاصرة؛ فالأديان الحيّة هي التي لها وجودٌ حاليٌّ ولها أتباعٌ يؤمنون بها. أما الأديان الميتة فهي التي زالت من الوجود وانتهت في التاريخ ولم يعد لها أتباع يؤمنون بها حاليا. وأساس عدم علميّةِ هذا التصنيف أنّه أغفل حقيقة أنّ الفكرة الدينية لا تموت وأنها قد تنتقل إلى صورةٍ أخرى أو تتطور إلى شكلٍ آخر. ومن ثم فالأديان لا تموت موتاً حقيقياً كما في الكائنات الحيّة وإنما تنتقل أفكارها ومفاهيمها من دينٍ إلى دينٍ آخر.

فما نتصور أنها دياناتٌ ماتت هي ليست كذلك، وعلى سبيل المثال فإن الفكر الهندي الديني القديم السابق على الهندوسيّة البراهمانية لم يمت تماماً وإنما هو موجود بصورةٍ أو بأخرى في الهندوسيّة وفي البوذيّة وفي الجينية. حتى الفكر الديني البدائي لا يزال له وجوده الحالي إما في شكلٍ مستقلٍّ أو من خلال تسرّبه في بعض الديانات الأحدث. ففي القارة الأفريقية مثلاً دخلت بعض هذه الأفكار الدينية البدائية في المسيحيّة والإسلام حال انتشارها في هذه القارة وهذا ما حدث في كلّ ديانات الشرق الآسيوي حيث تسرّبت الأفكار الدينية البدائية القديمة في الديانات الحديثة التي يؤمن بها المحدثون.

تصنيف الأديان إلى طبيعيّة وغير طبيعية، وهو تصنيفٌ يعتمد على فصل الأديان الطبيعيّة أي التي تستمد فكرها الديني من الطبيعة عن الأديان التي تركّز على الفكر الماورائي (الميتافيزيقي) وهذا فصلٌ تعسفيٌّ نظراً لأن الأديان عموماً تنظر إلى الطبيعة والوجود نظرةً كليّةً وتُكوّن تصوراً شاملاً للعالم الطبيعي وعالم ما وراء الطبيعة حتى وإنّ ركّزت على أحد العالمين دون الآخر؛

فالديانات البدائية مثلاً يُنظر إليها على أنّها دياناتٌ طبيعيّةٌ ارتبط فيها الإنسان بالطبيعة، ومع ذلك لم ينفصل الإنسان المؤمن بها رغم فكره البدائي عن عالم ما وراء الطبيعة وإن جاء تعبيره عن ذلك من خلال الأساطير وليس من خلال الأفكار العقليّة المجردة التي ربما حلّت في ما بعد في مرحلةٍ لاحقةٍ من تطوّر هذه الديانات الطبيعيّة محل الأسطورة حيث إن موقف الإنسان من الطبيعة مرتبطٌ بدرجة التقدّم الفكري ومدى قدرته على فهم أسرار الطبيعة. ومن ثم فإن التمييز المزعوم بين الأديان الطبيعيّة والأديان الميتافيزيقيّة ليس تمييزاً علميّاً.

تصنيف الأديان إلى حقيقيةٍ وباطلة، وهو تصنيفٌ ذاتيٌّ يخضع لرؤيةٍ دينيّةٍ أو مذهبيّةٍ معينة. ولذلك فهو يكون عادةً تمييزاً بين دينٍ واحدٍ حقيقيٍّ هو ديني أنا وطائفتي الذي نؤمن به، وبين دياناتٍ أخرى باطلةٍ وزائفةٍ لأننا لا نؤمن بها. وبالطبع فهو تصنيفٌ بنيَ على التمييز والتعصّب من البداية، لأن كلَّ صاحب ديانةٍ يعتبر دينه هو الحق وبقية الأديان باطلة. ولذا فهو تصنيفٌ تعسفيٌّ فكلّ دينٍ لدى صاحبه إنما هو طريقةٌ للوصول إلى الحقيقة وما دام البشر مختلفون حول هذه الحقيقة وتتعدد رؤاهم حولها، فإنهم بالتالي سيختلفون في عقائدهم الدينية. ولا يرى المتعصّب لدينٍ ما أيّ حسناتٍ لأيِّ دينٍ آخر. وعلى ذلك فإن هذا التصنيف لا يقوم على أساسٍ علميٍّ بل يقوم على أساس الرؤيةَ المذهبيّة المتعصبة والمتحيزة مقدما.

التصنيف الإحصائي للدين،

وهو تصنيفٌ يستند على أعداد المؤمنين بكلِّ ديانة من الديانات، ومن ثم فهو يتدرج من أكثر الديانات أتباعاً حتى أقلّها في عدد التابعين. وهو بالتالي تصنيفٌ نسبيٌّ متغيّرٌ عليه الكثير من المآخذ حيث إن أهميّة الأديان وقيمتها لا تُقاس بعدد التابعين لها؛ فهناك أديانٌ على قدرٍ كبيرٍ جداً من الرقي والتقدّم الديني ولكن أتباعها قليلون لأسبابٍ قد تخصّ أصحاب الدين أنفسهم الذين يضعون قيوداً على التحوّل إلى دينهم ويمنعون انتشاره مثل ما هو حادثٌ في اليهودية؛ فهي ديانةٌ توحيديّةٌ راقيةٌ ومتقدمة، ولكنّ أهلها حوّلوها إلى ديانةٍ قوميّةٍ خاصةٍ بهم دون غيرهم، فمنعوا انتشارها وقلّ عدد أتباعها. وهناك دياناتٌ كثيرةُ الأتباع ولكنّها قليلة القيمة ومتدنيةٌ في فكرها الديني وهذا وضع الديانات البدائية المنتشرة في بعض مواضع القارة الأفريقية، وآسيا وأمريكا الجنوبية واستراليا.

فضلاً عن أن ثمة ديانات قليلة الأتباع لكنها ذات تأثير قويٍّ وخطيرٍ في غيرها من الأديان كالزرادشتية ذات التأثير في كلٍّ من اليهوديّة والمسيحيّة، وكاليهودية ذات التأثيرِ القوي في المسيحية. ولعلّ من أصعب ما يواجه هذا التصنيف من الانتقادات أن أعدادًا كبيرةً من المنتمين إلى بعضها يعدّ انتماؤهم شكلياً وبالاسم فقط، وهذا الأمر واضحٌ جداً في أوربا وأمريكا وفي الاتحاد السوفيتي المنحل. إن معظم بل ربما كلّ هؤلاء يُحصَون ضمن المؤمنين بالمسيحية في حين أن الواقع أن الكثير منهم تحوّلوا إلى العلمانيّة ورفضوا الدين واعتبروه أمراً شخصياً، وكذلك تقف ظاهرة تحوّل البعض من دينٍ إلى دينٍ أخر دون الإحصاء الدقيق لأتباع هذا الدين أو ذاك.

(ب) التصنيفات العلميّة:

التصنيف الجغرافي للأديان، وهو تصنيفٌ يعتمد على ما سمي في علم الجغرافيا بجغرافيّة الأديان وهو يختص بدراسة التوزيع الجغرافي للأديان وعمل الأطالس الجغرافيّة التي تحدّد مناطق انتشار الأديان في العالم وتهتمّ بتحديد الصّلة بين العوامل الجغرافية والفكر الديني وتأثير البيئة الجغرافيّة في العادات والتقاليد الدينية. ومن صور هذا التصنيف، النظر إلى الأديان من خلال التميز بين أديان الشرق وأديان الغرب وذلك حسب تقسيم أقاليم العالم إلى شرقيّةٍ وغربية، ومن صوره أيضاً التصنيف القاري للأديان فيقال أديان آسيا، أو أديان أفريقيا أو أديان أوربا وهكذا. والحقيقة أنه تصنيفٌ رغم استناده إلى بعض المعايير العلميّة إلّا أنه قاصرٌ نظراً لأن ما يسمّى مثلاً بأديان الغرب مثل اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام هي كلها أديانٌ ظهرت في الشرق ولها أتباعها في كلّ مكان في العالم.

وإذا كان البعض ينظر إلى اليهودية والمسيحية تحديداً بأنهما ديانتان غربيّتان فهذا خطأ لأنهما في الأصل دياناتٌ شرقيّةٌ كما قلنا، فضلاً عن أنه لا يمكن أن ينظر إلى الإسلام على أنه دينٌ غربيٌّ أو شرقيٌّ فهو جغرافيًّا ينتمي إلى الشرق وله انتشاره في الغرب. وهكذا الحال في ما ينظر إليه على أنها دياناتٌ شرقيةٌ بحتة مثل الديانات الهندوسية والبوذية والكونفوشية والطاوية وغيرها. فهذه أيضاً دياناتٌ ظهرت في الشرق الآسيوي وخاصةً الشرق الأقصى ولكن الآن لها أتباعها في كثيرٍ من دول العالم وخاصة في الغربي منه. وعلى أيّ الأحوال فإن هذا التصنيف الجغرافي للأديان إنما يستند على أساسٍ علميٍّ واضحٍ يمكن الاستفادة العلميّة منه في أحيان كثيرةٍ حيث يحدد الأماكن التي يكثر انتشار أتباع ديانةٍ معينةٍ فيها وحجم هذا الانتشار، وتكشف هذه الدراسات الجغرافية للأديان عن حركة انتشار هذه الأديان وانتقالاتها مما يقضي باستمرار متابعة توزيع هؤلاء الأتباع وإعادة التوزيع الجغرافي لهم حسب الواقع الديني للشعوب.

التصنيف التاريخي للأديان:

وهذا التصنيف معنيٌّ بترتيب أديان العالم تاريخياً حسب ظهورها في التاريخ، فيقسّم الأديان حسب عصورها التاريخية مثلما يُقال أديانٌ قديمة، ودياناتٌ وسيطةٌ، ودياناتٌ حديثةٌ وأحياناً ما يتم التقسيم التاريخي إلى دياناتٍ بدائيةٍ ودياناتٍ حضارية. وهذا التصنيف رغم استناده إلى بعض الحقائق التاريخية إلا أنه يُواجهه مشاكل عديدة مثل عدم تحديد زمان نشأة بعض الديانات بدقة، كما أن ثمة ديانات متزامنة في ظهورها ويصعب ترتيبها ترتيباً تاريخياً مثلما هو الحال في ديانات الزرادشتية والبوذية والكونفوشية والطاوية فكلها تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد وقد ارتبطت في ظهورها بشخصياتٍ يُحاط الكثير منها بأساطيرٍ تحجب الرؤية التاريخية لعصورهم وظروف تأسيس دينهم. كما أن التمييز بين أديانٍ وسيطةٍ وأديانٍ حديثةٍ غير دقيقٍ لأن المقصود به ليس نشأة الدين وإنما فقط الأوضاع الدينية في العصرين الوسيط والحديث.

التصنيف الديني الموضوعي للأديان، وهذا التصنيف يعتمد على العامل الديني وليس على العلوم كالتصنيف الجغرافي أو التاريخي. ويعدّ هذا التصنيف أكثر التصانيف مناسبةً للأديان؛ إذ يقوم على أساسٍ من تشابه الأديان واختلافها في العقائد والمفاهيم الدينية، مثلما نصنف الأديان إلى أديانٍ إلهيةٍ وأديانٍ غير إلهيةٍ على أساس الإيمان بالألوهية، وهناك الديانات التعدّدية والديانات التوحيديّة على أساسٍ من التمييز بين الأديان التي يؤمن أتباعها بآلهةٍ متعدّدةٍ والديانات التي يؤمن أتباعها بإلهٍ واحدٍ فقط. ويتبع المجموعة الأولى من الديانات معظم الديانات الشرقيّة واليونانية القديمة حيث تعددت فيها الآلهة وعبادة العناصر الطبيعيّة والكائنات الحية. أما المجموعة الثانية فهي تُطلق على الديانات السماوية الإبراهيمية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام). وثمة ديانات تمثّل مجموعةً ثالثة من الديانات الثنوية أو الإثنية الثنائية مثل الزرادشتية والمانوية والمزدكية .

وهناك في هذا الإطار تصنيفٌ آخر يقوم على التمييز بين **الديانات السماوية والديانات الأرضيّة،** فالديانات السماويّة هي الديانات المُنزلة من الله عبر الوحي، والديانات الأرضية مصدرها المعرفة الإنسانية الأرضيّة دون الاعتماد على الوحي أو على أيّ مصدرٍ خارجيٍّ للمعرفة.
ويمكن أن يندرج تحت هذا التصنيف التمييز بين الديانات الفلسفية في مقابل ديانات التوحيد المعتمدة على الوحي الإلهي.
وهناك تصنيفٌ آخر على نفس الأساس الديني يصنف **الأديان إلى عالميةٍ وقوميةٍ أو عالميةٍ ومحليةٍ** وذلك حسب رؤية من يؤمنون به لطبيعة دينهم وطبيعة علاقتهم بالإله المعبود؛ فالديانة العالمية يعتقد أهلها أنّها ديانةٌ صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ وللعالم كلّه وليست خاصةً بقومٍ دون غيرهم مثل الإسلام والمسيحية والبوذية فهي دياناتٌ تقول بالعالمية، أما الديانة القوميّة أو المحلية فهي دياناتٌ خاصةٌ يعتقد أهلها أنّها تخصهم دون غيرهم مثل الهندوسية واليهودية اللتان تدّعيان الخصوصيّة ومنها أيضاً الديانات القبليّة البدائيّة التي يرتبط فيها الإله بالقبيلة وبالجماعة في رباطٍ عرقيٍّ دموي ومثلها أيضاً الديانات التي تعبد الآباء والأجداد .
واستناداً إلى هذا التصنيف الذي يعتمد على العالمية أو الخصوصية يمكن تقسيم الأديان إلى أديانٍ دعويّةٍ تسعى إلى الانتشار وتقوم بجهودٍ في سبيل نشر عقائدها ومفاهيمها، وأديانٍ غير دعويّةٍ أو غير تبليغيّةٍ حيث إن طبيعتها عدم تبليغ الدعوة لغير المؤمنين بها أصلا.

تعقيب:

إنّ ما قدمناه من تصوراتٍ وآراءٍ حول مفهوم الدين وتصنيف الأديان إنما هي آراءٌ بشريّةٌ متفاوتة حول الدين. وفرق كبير بين القراءة البشريّة للدين: نشأته وتعريفه وأنواعه، وبين التصوّر الذي رسخ لدى المؤمنين بكلّ دين على حدة. لكن الذي لا شك فيه أن التمييز الأكثر وضوحاً لتصنيف الأديان إنما هو الذي يميّز ببساطةٍ بين الديانات البشريّة أي التي انتسبت إلى بشر واستندت على أقوالهم وأفعالهم، وبين الديانات السماويّة التي مصدرها الوحي الإلهي وهي ببساطةٍ ما تسمّى بالديانات الإبراهيمية الثلاثة (اليهودية المسيحية والإسلام.